تـوكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل دراسة في بلاغة التَّعبير القرآني

الأستاذ الدكتور رياض عبود إهوين
الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية
riyadhaboodh79@uomstansiriyah.edu.iq

Emphaticness of the attached pronoun by the separate pronoun ; A study in the rhetoric of the Quranic expression

prof.Dr. Riyadh Abood Ehwain
Al-Mustansiriyah University , College of Arts , Department of Arabic

الملخص:-

يُعنى هذا البحث بدراسة نمطٍ من أنماط التَّوكيد التَّفصيلية المختلفة ألا وهو: توكيد الضّمير المتّصل بالضّمير المنفصل في النَّص القرآنيالسَّور السَّبع الطوال أنموذجاً، ومن هنا كانت غاية البحث، أن يعرج إلى الأسرار التَّعبيرية التي تكتنز استعمال هذه الصّيغة التَّوكيدية المتفردة عن طريق الاتّكاء على المضامين التَّفسيرية للقرآن الكريم فضلاً عن الأبعاد النَّحويَّة والبلاغيَّة، ثم بيان المتعلقات الدَّلالية الَّتي تنتج عن هذا الاستعمال.

الكلمات المفتاحية: التوكيد، الضمير، البلاغة.

Abstract:-

The present study is concerned with studying a type of emphaticness of the attached pronoun by the separate pronoun as found in the Quranic text: A case study of the seven long suras. Accordingly, the paper is to probe into the expressive secrets which are involved in the use of the unique formula of emphaticness. This investigation is based on the interpretive implications of the Glorious Quran. Besides, rhetorical and grammatical implications are also involved in studying this type of emphaticness. Finally, semantic relations resulting from such use of pronoun-based emphaticness are highlighted.

Key words: emphaticness, pronoun, rhetoric.

المقدّمة

إنَّ التّوكيد يُمثّلُ مبحثاً مشتركاً بين ميداني النّحو والبلاغة، ومن المُلاحظ إجمالاً أنَّ المباحث التي تشترك بين ميدانين مختلفين - وإن كانا متقاربين - تتسم بالثَّراء البحثيّ والمعرفيّ ويتأتّى ذلك من محاولة كلّ ميدانٍ أن يدلوَ بدلوهِ في سبيل تقديم صورةٍ ناضجةٍ ويافعةٍ لفهمه؛ لذلك دأب علماء النّحو جنباً إلى جنبٍ مع علماء البلاغة لمُباحثة التّوكيد كلٌّ حسب اختصاصه وميدانه؛ فالنَّحويّ يبحث في التّوكيد من حيثُ ضوابطه وأدواته محاولاً حصرَه وتقعيده، أمَّا البلاغيّ؛ فيبحثُ التّوكيد من حيثُ فصاحته وبلاغته ودلالته وجدواه... وهذا غيرُ ذاك.

وزيادةً على ذلك مثّل التّوكيد مَبحثًا رئيسًا من مباحث الدَّرسِ القرآنيّ، فقد حَظيَ بعناية الباحثين في تعبيره ومقاصده وأسراره وكان نتاجُ ذلك أن قدَّم الباحثون فيه مادَّة ثريّةً يافعة؛ لكنَّ النَّاظر في معظمِ هذه الدّراسات يلمسُ بعدًا شموليًا أو كليًّا فيها، فهي لا تركن - في معظمها - إلى الخفايا والأسرار التَّعبيريّة التي تكتنزها أنماط التّوكيد التّفصيليّة المختلفة.

من هنا ولدتْ فكرةُ هذا البحث، وهي أن يُعنى بتفصيلٍ خفيٍّ ناجزٍ من تفاصيل التّوكيد الكثيرة ألا وهو: توكيد الضّمير المتّصل بالضّمير المنفصل، فكان هَمُّنا في ذا البحث أن نعرج إلى الأسرار التي حُمِّلت في النَّص القرآني من وراء استعمال هذه الصيغة التّوكيدية المتفرِّدة وتحديداً في السور السبع الطوال، فكان أن اصطبغ البحثُ بصبغةٍ تحليليّةٍ نحويّةٍ وبلاغيّةٍ ودلاليّة؛ وقد بدت هذه الصبغة كأنَّها من المقدِّمات الضرورية الَّتي تفرضها طبيعةُ الدّراسة للوصول إلى نتائجَ مُستحكمةٍ في البحث، وكان من مقاصد هذه الدراسة أيضاً البحثُ في الدوافع المحرّكة لاستعمال هذه الصّيغة في التّوكيد عن طريق الاتّكاء على المضامين التّفسيريّة للقرآن الكريم، ثمّ الانتهاء بكشف المتعلّقات الدّلاليّة التي نتجت عن تضافر المضامين النّحويّة والبلاغيّة والتّفسيريَّة.

المطلب الأول

المحور الأوَّل: التوكيد، بحثٌ في الماهية

تقول العربُ: وَكَّدَ العقدَ والعهد أي: أوثقه، والتَّأكيد - بالهمز - لغةٌ فيه [١] إذ يُقال أوكده إيكاداً وأكدته وهو بالواو أفصح من الهمز[٢]، هذا ما ورد في معنى التّوكيد لغةً، أمَّا في الاصطلاح؛ فقد عرَّفه الجرجاني (ت816هـ) في تعريفاته بكونِه "تابعاً يُقرِّر أمر المتبوع في النسبة

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

أو الشمول، وقيل: عبارةٌ عن إعادة المعنى الحاصل قبله"[٣]، أمَّا الكفويّ (ت1094هـ) في كُلِّياته؛ فيرى في اللَّفظ المؤكِّد أن يكونَ "لتقرير الْمَعْنى الْحَاصِل قبله وتقويته"[٤].

أمَّا عن تفريعاته؛ فالنَّحويّون يُقسِّمون التّوكيد إلى قسمين رئيسين، هما التّوكيد اللفظيّ والتّوكيد المعنويّ، وقد عبَّر عنهما الزمخشريّ(ت٥٣٨ هـ) بالتّكرار الصّريح والتّكرار غير الصّريح [٥]، فاللفظيُّ أو الصّريح منه يكون بتكرار اللفظ وإيراده بصورةٍ مطابقةٍ لصورته السابقة ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (الانفطار: ١٧ – ١٨) فإيراد اللُّفظ عينه بهذا الصورة المتناسقة أوحى بشيءٍ من التّوكيد والتَّقرير للمعنى الذي يراد إبرازه وإظهاره، ومن الواضح أنَّ هذا التّوكيد كان لقصدٍ وغايةٍ أرادها التَّعبير القرآني، ولا نُريد أن نسهب في ذكر غايات التّوكيد وجدواه بل سنذكرها في موضعها ونفصِّل القول فيها، أمَّا الفرع الثاني؛ فهو التّوكيد المعنويّ، أو غير الصّريح فطريقته تكون بتكرار المعنى دون اللَّفظ، ويتمّ بألفاظٍ مخصوصة وضعت لهذا الغرض وهي: نفس، عين، كلّ، كِلا، كِلتا، جميع، أجمعون، جمعاء، جَمع، ومنه ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٤٣).

أمَّا عن جدوى التّوكيد وغاياته؛ فيتحدث النّحويّون والبلاغيّون عن أغراضٍ مختلفةٍ للتّوكيد، ويبدو أنَّ هذه الأغراض هي التي أفضت إلى أهميته ومركزيته تبعاً لأهميتها في اللُّغة والاستعمال، ومن هذه الأغراض مثلاً تقرير المعنى وثباته [٦] في ذهن المتلقّي إذا كان شاكّاً في صحّة الإخبار، أو كان المعنى مُلبسًا،أو إنَّ التّقرير والثّبات يكون لأهمية الموضوع المراد توكيده ومنه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١ – ٢)

فقد يُقدَّر للمتلقي أنَّه يقول: ولِمَ ليلةً القدر؟! من باب التَّعجُّب أو النَّفي أو حتَّى الشكّ لكنَّ التَّعبير القرآنيّ آثر التّوكيد بالتَّكرار الصريح؛ دحضاً لأيِّ شكٍّ أو التباسٍ وتعظيماً لمنزلة ليلة القدر ومكانتها، ومن هذه الأغراض إزالة الاشتباه بالمجاز [٧] فقد يوهِمُ المجاز معنىً غير المعنى المقصود؛ لشيوعه في الاستعمال وتوسّع أبوابه في العربيَّة من ذلك مثلاً قولنا: (مررت بزيد)، فهو يحمل معنى: (مررت بمحلِّ زيدٍ أو منزله)، لكنَّ توكيده بالنَّفس أو العين، أو حتَّى التَّكرار يُزيل اللبس والاشتباه بالمجاز فيصير قولنا:(مررتُ بزيدٍ نفسه)، فلا يدلّ القول إلَّا على زيد، ومن هذه الأغراض أيضاً أن يُزيل الدَّلالة على التَّبعيض أو الشَّك فلو قلت مثلاً: (قام القوم)، رُبَّما أوحي للمتلقي أنَّا أشرنا إلى قيام بعض القوم بيد أنَّ التّوكيد يُزيل

هذا الإيهام والشَّك بالتَّبعيض وهذا واضح في: (قام القوم كلُّهم).

والتّوكيد في صورته الشّكلية لا يخلو من أن يكون توكيداً للاسم الظاهر أو للضمير، ففي الاسم الظاهر يُقرِّر النَّحويون أنَّه لا يؤكَّد إلَّا بظاهرٍ مثله، ولا يجوز توكيده بالمضمر[٨] فلا يصحُّ قولنا حينئذٍ: (جاء زيدٌ هو)، أو (مررت بزيدٍ هو)، ويبدو أنَّ العلَّة الموجبة لذلك كما يراها ابن يعيش(ت٦٤٣هـ) هي أنَّ المضمر أخفى من المظهر فلا يجوز أن يكون ما هو خافٍ توكيداً لما هو أظهرُ منه [٩]، أمَّا المضمر؛ فيصحُّ فيه أن يؤكَّد في المظهر والمضمر على حدٍّ سواء، وهو لا يخلو من أن يكون ضميراً مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً، فالمرفوع منها لا يصحّ أن يؤكَّد بالمظهر إلَّا بعد توكيده بمضمر آخر فيُقال: (قمت أنت نفسك)، ولا يصح القول: (قمت نفسك)؛ لأنَّه ألبسُ في المعنى وأيهم. أمَّا إذا كان الضّميرُ منصوباً أو مجروراً؛ فيجوز فيه أن يُؤكَّد في المظهر دون توكيده بمضمر يسبقه، فيقال: (ضربتك نفسَك)، و(مررت بك نفسِك).

المحور الآخر: توكيد الضَمير المتصل بالضَمير المنفصل مدخل نظري.

هو واحدٌ من أهم صور التّوكيد وأجلاها؛ إذ يتم بوساطته الوقوف عند أسرارٍ تعبيريةٍ جَمَّة يختزلها توكيدُ ضميرين متصلٌ ومُنفصِل، فالتّوكيد - كما أشرنا سابقاً - له طريقان لا ثالث لهما وهو أن يؤكَّد الاسم أو يؤكَّد الضّمير، وكلاهما تكتنفه دلالات مهمَّة وتفرضه طبيعة النَّص أو الخطاب وما يُراد إبلاغه وإيصاله إلى المتلقّي أو المستجيب؛ لذلك سنقف فيما يأتي من البحث على ما يتعلَّق بتوكِيد الضّمير المتّصل بالمنفصل.

تُجيز الضابطة النّحويّة توكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل، وهو يؤكّد بضمير الرّفع المنفصل[١٠] فيقال: (قوموا أنتم أو قاموا هم) في حال الرفع، و (زرتكم أنتم أو زرتهم هم) في حال النَّصب، و(مررت بكم أنتم أو مررت بهم هم) في حال الجر، أمَّا عن انحصار الضّمير المنفصل بضمير الرفع؛ فقد قدَّم ابن يعيش في شرحه لمفصّل الزمخشري تعليلاً مُفصَّلاً في ذلك.

يرى ابن يعيش أنَّ ضمير الفصل تأصَّل في المرفوع فقط من دون المجرور والمنصوب؛ ذلك أنَّ أوَّل أحواله الابتداء وهذا كما هو معلوم عاملٌ معنويّ، فإذا صُيِّر ما يعمل فيه المعنويُّ مضمراً فلا بُدَّ من أن يكون منفصلاً لا يتصل بشيء، فلو قلنا مثلاً: (إنَّكم مجتهدون)، ثم أردنا توكيد الضّمير المتّصل بضمير منفصل يوازيه في الدَّلالة على المخاطب

قلنا: (إنَّكم أنتم مجتهدون)، ولا سبيل أخرى لتوكيد الضّمير المتّصل غيرُ المنفصل المرفوع. أمَّا ضمائر النصب والجر؛ فيرى ابن يعيش أنَّ عاملها لفظيٌّ؛ فإذا صُيِّرت مُضمرات اتصلت بعواملها اللفظية نحو: (زرتكَ، ومررت بك)، فلا ينفصل الضّمير عن عامله، أمَّا إذا أُريد توكيده فإنَّ له سبيلين لا ثالث لهما وهو أن يؤكَّد بضمير رفعٍ منفصلٍ نحو: (زرتك أنت)، و(مررت بكم أنتم)، أو أن يؤكد بضميرٍ متصلٍ ولكن بشرط أن يتصل المؤكِّد بما يعمل به نحو قولنا: (زرتك زرتك)، أو (مررت بكم بكم)، من هنا اختصّ الضّمير المنفصل بالرفع، وكانت ضمائر النَّصب والجر من وادٍ واحدٍ، وقد أشار ابنُ يعيش إلى أنَّ توكيد المتّصل بالمنفصل أقرب إلى التّوكيد اللفظيّ؛ لأنَّ التّوكيد المعنوي له ألفاظٌ مخصوصةٌ[١١].

إنَّ استعمال الضّمير للتّوكيد بهذه الصورة؛ إنَّما يتأتّى من دوافع تفرضها طبيعة النَّص والخطاب والحيثيات المقاميّة التي ترتبط بهما، فليس اعتباطًا أن يردَ التّوكيد في نصٍّ دون آخر، فصاحب الخطاب في سبيل تبليغ غاياته وإيصالها يعمِد إلى أساليب لغوية تقدحُ جذوةَ خطابه وتبلغها أيَّما إبلاغٍ، من هنا كان التّوكيد بهذه الجزئية - توكيد المتّصل بالمنفصل - مُختصَّاً بالمبالغة [١٢] وتبدو المبالغة هنا قصداً عامًّا حيث يُمكن أن نسِمها بـ(غاية كُليّة)، وأقربُ ما يُمثّلُها إطارٌ عامٌّ تنسل منه أغراضٌ متعدِّدة، يُمكن أن نسِم هذه الأخرى بـ(غايات فرديّة)، فغايات التّوكيد تختلف من مقام إلى آخرَ، ومن مُنشئٍ إلى آخر، فقد تكون الغاية الفرديةُ جذب انتباه السامع أو دفع غفلته كما في قولنا: (ناديتُك أنت)، فوظيفة ضمير التّوكيد المنفصل (أنت) هي دفعُ توهُّم السامع وغفلته، لكنَّ الغاية الكبرى أو الكلية هي المبالغة في المناداة والإفراط فيها بما لا يخلّ معه المعنى. وقد تكون الغاية الفرديّة دفع أذهان السَّامع عن الخطأ أو التوهّم، أو دفع المجاز في الكلام، فقد يظنّ المخاطب أنَّ ما يقوله المنشئ من قبيل المجاز، فيأتي التّوكيد دحضاً له وإثباتاً لحقيقة القول دون مجازه، وقد تحمل الغايات الفرديّة دلالة تقوية التَّقوية والتَّمكين في ذهن السَّامع كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٨)، أو التَّعظيم وقد جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)؛ فالتّوكيد غايته الكليّة في كلِّ ما سبق المبالغة والتّعضيد لكنَّ له غاياتٍ أخرى تُلتمسُ من سياق النَّص.

وفي سبيل هذه البلاغة - بلاغة توكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل - دافع ابن الأثير

(ت٥٥٥هـ) أيّما دفاعٍ، مفصلاً القول فيها، محتجًا لها بتقديم الأدلة الدّامغة، منطلقًا من مُسلَّمة مفادُها أنَّ التّوكيد الحاصل بالضّمير المنفصل أبلغ في المعنى من عدمه وهو أن يقتصر بذكر المتّصل دون توكيده بالمنفصل، فإن قيل: لو كان كذلك - أي لو كان التّوكيد بالمتّصل أبلغ - لاستعمله التّعبير القرآني حينما يشير الله تعالى إلى نفسه، ذلك أنّه ـ عزّ وجلّ ـ أحقُّ بالبليغ من الكلام، لكنّه مع ذلك أشار إلى نفسه دون أن يؤكّد الكلام بضمير متّصل في مواضع كثيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦)، وكان بالإمكان أن يقول: (بيدك أنت الخير، وإنك أنت على كل شيء قدير)، وفي الصدد يذكر ابن الأثير في معرض احتجاجه أنَّ توكيد الضّمير بهذه الشاكلة؛ إنّما يكون لضربٍ من تقرير المعنى وإثباته، وإنَّ ما يختصُّ بالله سبحانه وتعالى مقررٌ وثابتٌ ليس بحاجةٍ إلى توكيد أو إثبات وهذا يجري على قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٣].

فإن قيل مرَّة أُخرى: ولَّما كان ما يختصُّ بالله تعالى لا يحتاجُ إلى إقرارٍ أو إثبات أو توكيد؛ إذ هو بمنزلة الثّابت المستقرِّ في القلوب والأذهان لماذا وردت بعض تعابير التّوكيد المتّصل مؤكَّدةً بضمائر منفصلة؟ منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦) ألا يقتضي الحال ألّا تؤكد هذه التّعابير كونها مُسلَّمة؟! فالجواب هو أنَّ التّوكيد في مثل هذه المواضع لا يُفنِّد ما أشرنا إليه سابقاً من أنّها لا تحتاجُ إلى توكيدٍ أو إثبات فلو قيل مثلاً: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لثبت في النّفس ووقر أنَّ قدرته تتعلق بكلِّ شيءٍ وقائمة على كلِّ مخلوقٍ؛ وإنّما جاء بالضّميرين معاً - المؤكِّد والمؤكَّد - فمن باب تحصيل الأبلغ في التّعبير.[١٤]

وقريبٌ من هذا ما أشار إليه العلويُّ اليمانيُّ (ت٧٤٥هـ) في كتابه (الطراز)؛ إذ أوضح في معرض حديثه عن توكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل أنَّ التّوكيد لا يدخل في الكلام على جهة الوجوب فليس أمراً حتمًا أن يستعمل المُتكلِّم مُؤكِّدات في كلامه بل إنَّ حضور هذه المؤكِّدات يأتي على وجهين، فإمَّا أن يكون المعنى معلومًا لدى المُخاطب مستقرًا في ذهنه وما كانت هذه حاله فالتّوكيد فيه بالخيار أي: إنَّ للمتكلِّم تأكيدَ هذا القول أو تركه، بيد أنَّ توكيده أبلغ من تركه وهو ما أشرنا إليه سابقًا في إشارة التّعبير القرآنيّ للذات الإلهية، وإمَّا أن يكون المعنى غيرَ معلومٍ أو مشكوكًا فيه أو في صدقه، فما كانت هذه حاله فتأكيده أولى

وأبلغ في إيصال المعنى[١٥].

المطلب الآخر

توكيد الضّمير المتصل بالضّمير المنفصل دراسة في بلاغة التّعبير القرآني

خلصنا في المبحث السّابق إلى أنّ استعمال الضّمير المنفصل في توكيد المتّصل لا يخلو من غايات دلاليّة وبلاغيّة يرومُها صاحب الخطاب، وسنبحث هنا - إن شاء الله تعالى - كيف وظّف النّصُّ القرآنيُّ هذه الصورة المُميّزة في التّوكيد؟ وكيف أثّرت هذه الصّيغةُ دلالةَ التّعبيرِ القرآنيّ وأعطت زخمًا دلاليًّا ومناسبةً لحال الخطاب ومقامه؟، وتنبغي الإشارة إلى أنّ ورودَ هذه الصّيغة التّوكيديّة واسعٌ في النّصّ القرآنيّ وسنتّبع منهجا انتقائيًّا في اختيار الصّيغ والآيات:

أولاً: الصّيغة (إنّك أنت):

وردت هذه الصّيغة في ثمانية مواضع في السّور السّبع الطّوال[١٦]، أربعة منها في سورة البقرة، واثنان في آل عمران، واثنان في المائدة، وقد كان استعمالها في هذه المواضع الثّمانية - إذا أردنا أن ننظرَ نظرةً شاملةً - متوجّهًا من الأدنى إلى الأعلى، من المخلوق إلى الخالق، ثم إنّه ارتبط ارتباطًا دلاليًّا مُحبكًا مع أسلوب التّعقيب، فأنتج لنا ما هو أشبه بمصفوفة دلاليّة محكمة يقتضي أولُها آخرَها، وسنحاول تبيان هذا عن طريق تحليل هذه الآيات المباركات، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❖ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٢).

يبدو أنّ السّياق العام الذي يحكم مضمون الآيات هو سياقُ استدلالٍ على علم الله تعالى ذلك الذي لا نهاية لها، والدافع لهذا الاستدلال هي المحاورة الجارية بين الله تعالى والملائكة في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) فالاستدلال إذًا هو استدلال تفصيليّ [١٧] على علم الله تعالى بما لا يعلمه الملائكة من خيرٍ يقصده الله تعالى في هذا التخليف، فامتحنهم بتلك الأسماء ليبين لهم قصر علمهم وإدراكهم، وإنّه هو وحده علّام الغيوب، ثمّ خضع الملائكة لهذا الاستدلال والمحاجّة الدامغة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢)، وابتداؤهم بالتّسبيح إشارةٌ إلى اعتذارهم عن

مراجعتهم السَّابقة [١٨] فعلمهم محصورٌ بما فاض الله تعالى به عليهم، أمَّا التَّعقيب: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فهو بمثابة التَّعليل لانحصار علمهم وتقييده؛ لذلك جاء ضمير الكاف الدال على الذات الإلهية مؤكّداً بالضّمير المنفصل (أنت) وأرادوا بهذا التّوكيد قصر العلم؛ حتَّى يردوا اعتقادهم أنفسَهم أهل علمٍ ودرايةٍ، أو أرادوا بذلك قصراً حقيقيًّا لكمال العلم والحكمة به وحده سبحانه [١٩]، من هنا تناسبت الأساليب المستعملة في الآية للدَّلالة على حصر العلم بالله تعالى وحده، بدءاً من ابتدائهم بالتسبيح فمروراً بنفي جنس العلم والاستثناء ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ثمَّ انتهاءً بالتّوكيدين في قوله (إنك أنت) وختاماً بصيغ المبالغة الصرفيّة (فعيل) المعرّفة بـ(ال) التعريف، فقد تضافرت هذه الصيغ جميعاً لتقدَّم لنا مصفوفةً دلاليّةً يمكن أن نُخطِّط لها بالآتي:

(سبحانك) ⟵ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ⟵ (إنّ + ك + أنت + العليم الحكيم)

(التنزيه) ⟵ (نفي الجنس والاستثناء) ⟵ (تضافر التّوكيد + (ال+فعيل)+ (ال+فعيل))

ومن استعمال هذه الصيغة أيضاً قوله تعالى في ثلاث آيات متتاليات في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧ -١٢٩) والخطاب في هذه الآيات يُشاكِل ما أوردناه في الآية السَّابقة من الخطاب يتجه من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو خطابٌ من المخلوق لخالقه، أمَّا السّياق العام الذي يؤطّر دلالتها فهو الدّعاء، وقد استعمل التَّعبير القرآني أدقَّ التَّعابير الممكنة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنتج لنا مصفوفةً لغويّةً ودلاليّةً في سياقٍ دُعائيٍّ متماسك، وسنحاول تحليل هذه الآيات وإخراج ما فيها من إشارات تعبيريَّة بليغة.

يبدأ الخطاب بذكر حال إبراهيم عليه السلام وهي بناء البيت الحرام، وعبّر عنها بالمضارع (يرفع) بدل الماضي (رفع) فكأنه أوردها مشاهدة؛ لأنّ المضارع يحمل دلالة الزَّمن الحالي، ثمَّ إنَّه عطف إسماعيل بعد أن أورد ما لإبراهيم من خصائص الفاعلية فلم يقل: يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد... ثم يبدأ نصُّ الدعاء بالنِّداء (ربَّنا) ولم يستعمل لفظ (الإله)؛

لأنَّه يتعلق بمصير العبد وخلقه ومنتهاه، أمَّا الرب فيتعلق بأمور العبد من الرزق والهداية وغيرهما، من ذلك كان لفظ (الربّ) أحقّ بالدّعاء والاستعانة، وهو ما جاءت به الاستعمالاتُ القرآنيّة، وهذا النّداء يسبق اللحظة الأهمّ وهي طلب القبول: (تقبَّل منّا) فلم لم يقولا: (اقبل منَّا)؟؛ ذلك أنَّه فرقٌ بين (اقبلْ) و(تقبَّلْ) فالقبول هو " كلّ عمل يقبله الله تعالى فهو يثيب صاحبه ويرضاه منه، والذي لا يثيبه عليه ولا يرضاه منه فهو المردود، فههنا عبَّر عن أحد المتلازمين باسم الآخر، فذكر لفظ القبول وأراد به الثّواب والرّضا "[٢٠] ، أمَّا التقبُّل فـ"يكون حيث يكون العمل ناقصًا لا يستحقّ أن يقبل، فهذا اعتراف منهما بالتّقصير في العمل، واعتراف بالعجز والانكسار، وأيضا فلم يكن المقصود إعطاء الثّواب عليه"[٢١].

ثم اختُتمت الآية ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وهو تعقيب أُريد به تعليل الطلب؛ فهم يطلبون من الله تعالى كونه سميعاً لهم وعليماً بحالهم، أمّا توكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل في قوله (إنَّك أنت) فإنَّما أرادوا به قصر (السميع العليم) له سبحانه، وتنزيل سمع وعلم غيره منزلة العدم [٢٢]؛ ولأجل هذا تضافر التّوكيد بـ(إنَّ) وتوكيد المتّصل بالمنفصل، واستعمال صيغة المبالغة المعرّفة، والسَّمع والعلم ليناسبا ما ورد في الآية تناسباً دلالياً، من هنا أنتج لنا التّعبير القرآني صورةً متكاملةً من متواليات ذات نسقٍ خطيّ، استلزم بعضها بعضاً، وأحكمَ بعضُها بعضاً، بدءًا من النّداء ومروراً بالطلب وانتهاءً بالتّعليل:

ربَّنا ← تقبّل منا ← إنَّك أنت السميع العليم

النداء ← الطلب ← التّعقيب بتضافر المؤكّدات

وعلى هذه النَّسق الخطابي استمرَّ الخطاب في الآيتين الأخريتين مقدمًا النّداء مكرّراً إيّاه في بادئة الآيات الثلاثة، الأمر الذي أوحى بصورةٍ تركيبيةٍ بليغةٍ، وهذا يتأتّى من كون النّداء عاملًا أساسيًّا ومهمًّا في موقف الدّعاء؛ إذ تتمُ فيه الإشارة إلى ربوبية الخالق، وتحكّمه المُطلق غير المحدود في شأن عباده، وانتظارهم لرحمته وسعته، ونظرهم إليه صوب السّماء متضرّعين قاصدين عطفه، ثمَّ الانتقال بعد ذلك إلى جوهر الدّعاء، وهو الطّلب، ففي الآية الثّانية كان دعاؤهم ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ ومن فوائد تكرار هذا النّداء أيضا هو التّركيز على هذه الدعاوى[٢٣] وأنّها قُصدت قصدًا، كلٌّ بحدِّ ذاتها، وممَّا يؤكّد على ذلك أنّ النّداء لم يُكرَّر داخل الآيات؛ إنّما اكتفي بتكراره عند

الانتقال من آية إلى أخرى، فكأنّما وضع النّداء موضع الإطار الذي يحدُّ الآيات ويؤطّرها، الأمر الذي أضاف تركيزًا وتبئيراً للدّعوات في الخطاب، ثم الانتقال من الطلب الواحد (تقبّل منا) إلى أربعة مطالب في الآيتين الأخريتين:

١) ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ١٢٨)

٢) ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩)

ثم الخاتمة المناسبة لكلِّ آيةٍ ومطالبها، والتَّعقيب المقتضى اقتضاءً طبيعيًّا من خلال ما طلبوه ودعوه، فمَن يمكن أن يتوب عليهم غيرُ التوّاب الرَّحيم؟! ومن يمكن أن يُعلّمهم الحكمة ويزكيهم غير العزيز الحكيم؟! ولأجل هذا الاختصاص استعمل توكيد الضّمير المتّصل بالضّمير المنفصل (إنَّك أنت) ولو قال: إنَّك العزيز الحكيم، لضعف المعنى وضعفت معه درجة القبول والإجابة، لأنهما حينئذٍ لم يخصّاه سبحانه وتعالى بالتّوبة والرَّحمة أو العزة والحكمة، وحين يضعف معنى التَّعقيب والتَّذييل تضعف معه درجة القبول؛ لأنَّه إنَّما سيقَ في الخطاب ليقرِّب الإجابة [٢٤].

ومن الأمثلة القرآنية الأخرى التي استعملت فيها صيغة (إنَّك أنتَ) وكان الخطاب متوجهاً من الأدنى إلى الأعلى للإشارة إلى الذات الالهية، ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦) وقد جاء الخطابُ هنا متوجّهًا من عيسى عليه السلام في سياق جدليّ مُربك؛ حيث فعل النصارى ما فعلوا ثم زعموا أنَّ عيسى عليه السلام هو من أمرهم بذلك [٢٥]، فنتج عن ذلك أن كان خطابُ عيسى بليغًا إلى درجة، وإجابته لم تكن بالنّفي المباشر فقط، وقد تنبّه الزّمخشريّ على ذلك وعدَّه من فصيح الكلام وأبلغه؛ لأنّه اتّبع سبيل المشاكلة في إجابته [٢٦]، وأوّل ما بدأ به عيسى عليه السلام هو التّنزيه وهو ترفيع الله تعالى عن الشّرك به وهو من لطائف التأدّب في مخاطبته تعالى، وقوله يُحمل على الاستئناف، وكأنّه قيل: فما قول موسى؟ فقيل: يقول: سبحانك ![٢٧] فقبل أن يعمد إلى نفي ما نسبه إليه النّصارى من سوء أعمالهم ومرتكباتهم في الدّنيا أوضح بالتّنزيه

إنَّه غيرُ راضٍ على ما قدَّمته أيدي القوم من أعمال الشرك، وإنّه ينزّه الله تعالى عن كلِّ ذلك، ثم عَمد بعدها إلى الاستدلال بصورةٍ بالغة إلى أنَّه لم يبلغ النّاس، ولم يقل لهم بوجوب عبادته من دون الله تعالى سبحانه، وينبغي أن نشير هنا إلى أنَّ جواب عيسى عليه السلام كان عبارةً عن سلسلةٍ من التَّراكيب المتراصّة، ذات التَّوجيه الدَّلاليّ الواحد، فقد بدأ بأسلوب النّفي ولكنَّه ليس نفيًا للحدث بطريق مباشرٍ؛ إنَّما نفيٌ للكون ونفي الكون يستدعي نفي الحدث الجزئيّ ويقتضيه اقتضاءً، وهو أبلغ وأشمل في ذا المقام، فالنّفي لا يتوجّه لنفي قوله: أي إنَّه لم يقل لهم ولم يبلغهم بذلك، إنَّما توجّه إلى نفي كلِّ ما ليس له به حقّ أن يقوله؛ لذلك وجّه السّمرقنديّ(ت ٣٧٣هـ) المعنى بالآتي: لا يجوز ولا ينبغي لي أن أقول ما ليس لي حقّ قوله[٢٨] وهذا بالمجمل يعني نفي ما نسبه النّصارى إليه من سوء أفعالهم، لذا عاد السّمرقنديُّ مرّة أخرى لنفي الحدث بقوله: ليس من العدل أن يعبدوا غيرك[٢٩].

ثم تتواصل بعد ذلك سلسلة الاستدلال، فالأمر لا يتوقف عند حدِّ النّفي، بل يتجاوزه إلى تركيب الشّرط، وقد أبدع التَّعبير القرآنيّ هنا في الاستدلال في بيان التّلازم الحتميِّ والضروريِّ بين القول وعلّم الله تعالى به، فكلّ حاصلٍ قولًا كان أو فعلًا كان علمه عند الله تعالى دون أدنى شكّ، فمن لطائف التّعبير والمحاججة أن يستدل عيسى عليه السلام بعلم الله تعالى في موقف المحاججة معه سبحانه، فإنْ كان عيسى قائلًا؛ فإنَّ العلم عند الله وحده. ومن التّراكيب التي سيقت في عمليَّة الاستدلال الإخبار بالجملة الفعليّة ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ففي سبيل تدعيم الرأي وتقوية الحجّة قدَّم التّعبير حجةً تستند إلى الاستمرار والتّجدّد والحدوث، وهي علم الله تعالى بسائر الأحوال من أقوال وأفعال وغيرهما فإنَّ ما يقوله عيسى عليه السلام لا يشرِد من علم الله تعالى.

وأبلغ ما في هذا كله هو قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ إذ يمثّل ارتقاءً في الاستدلال لبراءته من جنس هذا القول؛ لذلك جمع فيه التَّعبير أربعة تراكيب، وقد أشار ابن عاشور في معرض حديثه عن تفسير هذه الآية إلى أنَّ قوله هذا يُساق مَساق التّعليل لقوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[٣٠]، أمَّا عن هذا الارتقاء وكيفية اشتغاله فإنَّ له قوادحَ فرضت مركزيّته التي تشكلت في جُلِّ الخطاب، وهي تتمثل في أربع نقط:

١- التّوكيد بـ إنَّ.

٢- توكيد الضّمير المتّصل بالضّمير المنفصل.

٣- استعمال صيغة المبالغة (فعّال) في قوله: (علّام).

٤- صيغة الجمع البارزة (فُعول) في قوله: (الغيوب) ثم تعريفها.

إنَّ أكثر ما يبرز في هذه الاستعمالات المختلفة بدءًا من التّنزيه وانتهاءً بالتّعقيب هو الاستعمال المتفرّد للضّمير المنفصل في توكيد الضّمير المتّصل، فمن الطّبيعيّ أن تتضافر هذه الصّيغة التّركيبيّة مع التّراكيب الأخرى خاصّة أنَّ السّياق كان سياقًا جدليًّا واضحًا، ثمَّ ينبغي أن نشير هنا إلى أنَّ هذا الاستعمال المتفرّد في التّوكيد، أعطى زخمًا دلاليًّا للآية وتوجيه خطابها وجهةً إقناعيّة.

ثانياً: الصيغة (إنّه هو):

جاءت هذه الصيغة التّوكيديّة في موضعين في سورة البقرة [٣١]، وهي على غرار سابقتها تشير إلى الذّات الإلهية، غير أنَّ هناك فرقًا دقيقًا بينهما، وهو أنّ الخطاب في الأولى كان يتّبعُ مسارًا خطّيًّا من متحدّث إلى مُخاطب، ورأينا كيف خاطب إبراهيم عليه السلام ربّه داعيًا ثمّ أكّد خطابه (إنّك) بضمير الفصل (أنت)، أمّا في صيغتنا هذه، فإنَّ الخطاب يتوجّه من الذّات الإلهيّة ليعود إليها مرّةً أخرى، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)

فالتّعبير القرآني يصوّر لنا حال آدم عليه السلام حين أخطأ بأكله من الشّجرة الّتي منعه الله منها وأنزله للأرض جزاءً له، ويبدو أنَّ آدم طلب المغفرة من ربه طلبًا، ويدلُّ على هذا ابتداؤه بالفاء [٣٢] ربطًا واستمرارًا في الخطاب لطلب آدمثم جاءت الاستجابة فتلقّى الكلمات وتاب عليه، أما التّعقيب؛ فقد حمل معنى التّعليل وجاء مؤكّداً بالضّمير المنفصل؛ ليدل على اختصاص التّوبة والرحمة به سبحانه، وتناسق هذا التّوكيد مع صيغ المبالغة (التوّاب الرّحيم) وثمّ تعريفها بألف التّعريف، أمّا الآية الأخرى؛ فكان التّعقيب مماثلًا تمامًا حيث أُكّد الضّمير المتّصل بالمنفصل، وجاء بصيغتي مبالغة معرّفتين قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ

بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤) واضحٌ إذًا عملية الاقتضاء الحاصلة بين التّوبة والتّعقيب في كِلا الآيتين واستلزامُ الخطاب بعضه لبعض:

فتاب عليه ⟵ إنّه هو التواب الرحيم

فتاب عليكم ⟵ إنّه هو التواب الرحيم

ثالثاً: الصّيغة (أولئك هم):

وقد وردت في السّور السّبع الطّوال في ثلاثة مواضع فقط، وهي توحي عن طريق ضمير الغيبة الذي تكتنزه أنَّ الخطاب فيها يكون على جهة الغياب وليس الحضور، فكأنَّ الخطاب القرآني حين يستعمل ذا الصّيغة يصِفُ لنا حال قومٍ من الأقوام ثم يخلص - باستعمالها - إلى بيان الحكم المنوط بهم تبعًا لأعمالهم وهو حكم خاصّ، وهذا من فرائد التّعبير في الخطاب القرآنيّ، إذ ينبني على تراتبيّةٍ مطّردة وعرضٍ متسلسلٍ في الأفكار والمقولات؛ حتّى يخلص إلى الإفصاح عن بؤرة الخطاب أو غايته، وسنكشف عن الآلية التي يشتغل بها هذا التّراتب عبر تحليل الآيات المباركات. أو إنَّ الخطاب - باستعماله صيغة (أولئك هم) يُوحي لنا ببيان حكمٍ عامٍ لا خاصٍّ، فيكون هذا بطريق بيانِ صفاتٍ ما أو أعمالٍ ما، ثم يخلصُ إلى بيان حكم من يتّصِف بتلك الأوصاف أو يضطلعُ بتلك الأعمال.

من هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧)

حيث ينبني تراتب الخطاب هنا في أربع مراحل، ثلاث مراحل منها قدَّم وصفًا خالصًا في بيان صفاتِ وأعمال من يشملهم الحكم الذي سيقرّر في نهاية الخطاب، وتمّ ربط التّراكيب الثّلاثة بأداة الرّبط (الواو) حيث أضفت شيئًا من التّساوي في رتب هذه الصّفات أو الأعمال، ثمّ افتتاح وبدءِ كلّ تركيبٍ بفعل مضارعٍ (ينقضون، يقطعون، يفسدون) للإشارة إلى تجدّد الفعل والاستمرار فيه دون الانقطاع والتّوبة، وبعد ذلك الانتهاء إلى بيان الحكم الذي يستحقه القائمون بهذه الأفعال وهو الخسارة، لكنَّ الخطاب أعطى أهمية كبرى للتّعقيب المتمثّل في نتيجة الاتّصاف بهذه الصّفات، فكأنَّ السّامع إذا سَمع هذه الصّفات انتظر وتفرَّغ ذهنه لتلقّي الحكم المنوط بها، ولتسريع عملية ربط الحكم بالصّفة لم يستعمل الخطاب حرفًا رابطًا فكأنّ

عمل الرّبط بينهما كان اقتضاءً طبيعيًّا، ثم إنَّ التَّعقيبَ جاء مؤكّدًا بضمير الفصل (هم)؛ لتخصيصهم بالخسارة من دون غيرهم، وكأنَّ الخسارةَ أصبحَ علمًا لهم ثم التَّعبير عنهم باستعمال اسم الفاعل يدلُّ على أنَّهم اضطلعوا بفعل الخسارة فهم فاعلون لأسبابها قاصدون لها، ويمكن أن نوضّح عملية التَّراتب الخطابيّ بالرسم الآتي:

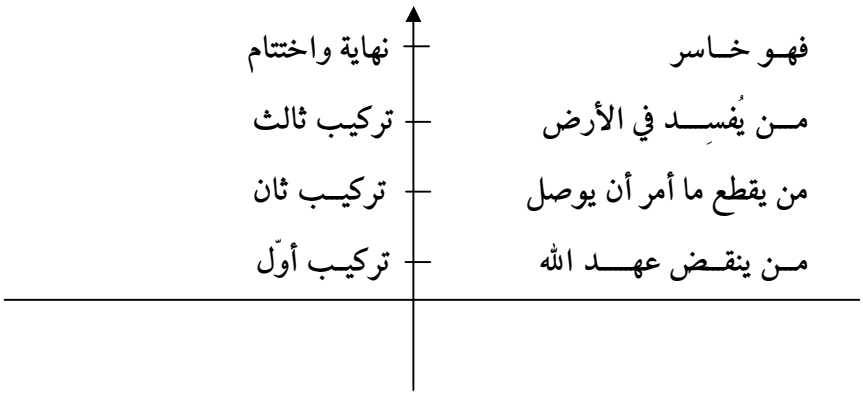

رابعاً: الصيغة (إنَّهم هُم):

وردت هذه الصيغة في موضعين اثنين في السّبع الطّوال[٣٣]، وكان استعمالها دقيقًا جدًّا وموظَّفًا توظيفًا بالغًا. إنَّ السّياق الذي ورد فيه هذان الاستعمالان كان سياقَ جدلٍ وسجالٍ؛ فالأمر منوطٌ هنا بوجهات النّظر ومواجهتها، وبثِّ الآراء والمواقف وبناء اعتباراتٍ عليها، لذلك كان الخطاب القرآنيُّ يعرضُ لنا جملةً من المواقف المتضادّة والمتعاكسة في اعتقاداتها، حيث يرى جملةٌ من الخلق أنَّهم على حقٍّ وصواب مُصرّين على مواقفهم، فيحاول الخطاب أن يعكسَ لنا مواقفهم ويوضّح لنا سوء مرتكبهم من خلال الافتتاح لنصٍّ جديد، ثُمَّ التّصريح بكون حقيقتهم وماهيتهم رغم عدم إدراكهم لها، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١ - ١٢)، فالخطاب يعرض صورةً من التّواصل الحاصل بين ثلّة من المؤمنين وجمع من المنافقين، الهدف منه التوصُّل إلى هداية هؤلاء وإلقاء الحجّة عليهم؛ ولمَّا كان الأمرُ مُتعلّقًا بسلم المجتمع وصلاحه كون الفساد آفةً هدَّامةً له جاء الخطاب مُحمَّلًا بالتَّراكيب المختلفة بدءًا من الشّرط، ومرورًا بالنّهي وانتهاءً بالاستدراك، والفساد كما يبدو هو محور الخطاب في هذه الآية وبؤرته لذلك تم تغريض الخطاب بنحو مباشر عن طريق مصاحباتٍ لغويّةٍ مختلفةٍ (لا تفسدوا -

مصلحون – مفسدون) بيد أنَّ هذه الأهمية لا تُعطى للفساد عبثًا، بل يُنظر فيها إلى ما يتركه من أثرٍ سلبيٍّ فالفساد كما ذكر الفخر الرازيّ(ت٦٠٦هـ) نقلاً عن ابن عباس (ت ٦٨هـ) وآخرين: هو إظهار المعصية، وإظهارها من شأنه أن يتولَّد عنه الفساد في الأرض[٣٤]، وقولهم (إنَّما نحن مصلحون) ينمُّ عن قناعتهم بما يفعلون؛ لأنَّ إفسادهم عندهم إصلاح أي: إنَّ الغرض من مخالطتهم للمشركين هو محاولة الإصلاح بين المؤمنين والمشركين[٣٥].

خامساً: الصّيغة (إنَّ ربَّك هو أعلم):

وهذه واحدة من الصّيغ التي امتازت بتعبيرٍ فريدٍ عن سابقاتها حيث تبدو وكأنّها صيغة جاهزة من التّعبير، استعملت فيهما بحسب السّياق المتطلب لها [٣٦]،وهي تنفرد عن سابقاتها بكون الصّيغ السّابقة كانت تستعمل ارتباطًا مع التّعقيب وانسجامًا معه، وقبل أن نشرع ببيان الغرضِ الدلاليِّ الموجب لها سنحاول أن نُحلِّل التّركيب نفسه.

تتكوّن هذه الصّيغة من تركيبٍ مُعقّدٍ لا بسيط، فهي تنبني من تراكيبَ صغرى ذات حمولاتٍ دلاليّة صغرى أيضًا، أسهمت بنحوٍ فاعلٍ في تكوّن الدَّلالة الكليّة، بدءًا من صيغة التَّوكيد (إنَّ) المتحكّمة في كون التّركيب فيبدو بوساطتها موجّهًا وجهةً توكيديّةً لا غيرَ، فمروراً بما تتطلبه (إنَّ) من اسمٍ لها وهو (ربّك) وهو يشكّل تركيبًا أصغرَ من المضاف وما أُضيف إليه، ثم الدّلالة الصغرى للفظِ الرّبّ، كونه العالم في تربية عباده وتوجّهاتهم من الضّلالة والهدى [٣٧]، ثم انتهاءً بالخبر الذي تشكّل من تركيب أصغر أيضاً، بدءًا بضمير الفصل المؤكّد للضّمير المتّصل، والذي أعطى بعدًا توكيديًّا كبيراً وانسجم هذا التّوكيد مع التّوكيد في أول التّركيب ليشتمل التّركيب على توكيدين، فضلاً عن استعمال الجملة الاسمية في الخبر، للدّلالة على ثبوت علم الله تعالى واستقراره بأحوال عباده من الضلالة والهدى.

إنَّ	ربَّك	هو أعلم
أداة	اسم + ضمير	ضمير + اسم
توكيد	تركيب أصغر ١	تركيب أصغر ٢

أمّا عن استعمالها في النَّص القرآنيّ فقد وردت في تسعة مواضع ووقع منها موضعان في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ

أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١١٥ - ١١٧) فالسّياق الذي وردت فيه كما أسلفنا كان سياق الحديث عن الهدى والضّلالة، وإنّ الله تعالى أنزل كلماته بالحقّ وأن لا مناص عنها، فهو سبحانه مختصّ بالحكميّة والعدالة لإنزاله كتابه الفاصل بين الحقّ والباطل، ثمَّ إنَّ أكثر من في الأرض لا يركنون إلى هذه الحقائق السّاطعة وهم الكافرون الذين جحدوا نعم الله تعالى[٣٨]، ولعلم الله تعالى بمسلك كلّ قوم، ودرايته بمآخذهم وأغراضهم، أشار التّعبير القرآنيّ إلى ذلك مؤكّداً بصيغتي التّوكيد (إنَّ + توكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل).

وينسجم مع هذا الاستعمال الدّقيق ما استعمله التّعبير القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١١٩)حيث جاءت الصّيغة تعقيبًا هنا وفيها إخبار لرسول الله ﷺ وتوعيدٌ لهم من الله تعالى بعلمه إيّاهم ومعرفته الحقيقة لهم ولأفعالهم[٣٩] لذلك كان الخطاب مشتملًا على توكيدين أيضا التّوكيد بالأداة (إنَّ) والتّوكيد للضمير المتّصل بالضّمير المنفصل الذي افاد حصر العلم بالله تعالى وحده وتوكيداً لوعيده لهم.

نتائج البحث:

لقد مثّل التّعبير القرآني من خلال استعماله صيغة التّوكيد المتوخّاة في بحثنا هذا دقّةً متناهية في قصد الاستعمال، فقد وضعنا في مقدّمة البحث جملةً من المقاصد التي عكفنا على مدارستها والكشف عن حقائقها، وتبيّن لنا عن طريق البحث أنَّ التّعبير القرآني أبدع في استعمال هذه الصيغة؛ إذ لم يكن في الاستعمال اعتباطٌ في شيءٍ فكان مقصوداً أيّما قصدٍ أن يُؤتى بصيغة التّوكيد في موضعٍ ما، واختلفت دلالتها باختلاف مُحرّكات الاستعمال فيكون استعمالها تارةً لقصد الحصر إذا كان المقام يتطلّب حصراً لدلالةٍ ما، ولقصد الاختصاص تارةً أخرى إذا كان المقام يتطلب اختصاصاً.

أمّا عن وجهتها فقد خلُص البحثُ إلى أنَّ وجهة هذه الصيغة تتوجه نحو الخالق في الأعمّ الأغلب، وهذا ما تبيّن عن طريق استقراء النّصوص القرآنيّة الواردة فيها في السّبع الطوال، ثم أنّها قد تنطلق من المخلوق كأن يكون نبياً مثلاً فيخاطب ربّه بصيغة التّوكيد كما

مرَّ بنا، أو قد يكون منطلقها من الذات الآلهية لكنه يعود عليها مرَّة أخرى وينتج عن هذا أيضا دلالاتٌ أُخر كالتنبيه على واقعةٍ ما أو حدثٍ ما، أو مرتكب سيءٍ، أو الإشارة إلى عظمة الله ورحمته بالعباد من خلال سمعه وعلمه بسائر أحوالهم ومن ثَمَّ مداراته لهم.

وأكثر ما كان بارزاً في استعمالها هو التضافر الحاصل بين صيغة التركيب هذه والتراكيب الأُخر، إذ شكلَّت مع الشَّرط والاستثناء والأمر والإخبار وتراكيب التّوكيد الأخرى مصفوفةً تعبيريةً ناجزةً، وقد أوضح البحث ذلك قدر الإمكان لكنَّ البارز في هذا الاستعمال هو أنَّها - صيغة التّوكيد - مثّلت بؤرة الخطاب ونهايته التي تُنتظر، لذا يمكن القول دونما حرجٍ أنَّ توكيد الضّمير بهذه الصيغة الفاعلة كان ختاماً وغلقاً لجلِّ التراكيب، من هنا انعكس ذلك على استعمالها بمعيّة أسلوب التعقيب (الفاصلة)، حيث وازن التَّعبير القرآنيّ بين التّوكيد الضّميريّ والصيغ المصاحبة له من حيث المبالغة في صيغها الصرفيَّة، أو تعريفها أو المجيء بها على نحو ثنائيات دلاليَّة.

هوامش البحث

(١)- يُنظر: لسان العرب: ٤٦٦/٣.
(٢)- يُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٢٠/٩.
(٣)- التعريفات: ٥٠.
(٤)- الكليات: ٢٢٣.
(٥)- يُنظر: المفصل في صنعة الإعراب: ١٤٥.
(٦)- يُنظر: المفصل في صنعة الإعراب: ١٤٦.
(٧)- يُنظر: أسرار العربية: ٢٠٨.
(٨)- يُنظر: شرح الكافية الشافية ١١٨١/٣.
(٩)- يُنظر: شرح المفصل: ٢٢٣/٢.
(١٠)- يُنظر: شرح الكافية الشافية: ١١٨٢/٣.
(١١)- يُنظر: شرح المفصّل: ٢٢٥/٢.
(١٢)- يُنظر: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ١٥٢
(١٣)- يُنظر: الجامع الكبير: ١٥٣ - ١٥٤.

(١٤)- يُنظر: الجامع الكبير: ١٥٤.
(١٥)- يُنظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٧٧/٢ - ٧٨.
(١٦) - سورة البقرة: الآيات ٣٢، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، وسورة ال عمران: الآيتان ٨، ٣٥ وسورة المائدة: الآيتان ١٠٩، ١١٦
(١٧)- يُنظر: التحرير والتنوير: ٤٠٨/١.
(١٨)- ينظر: المصدر نفسه: ٤١٤/١.
(١٩)- يُنظر المصدر نفسه: ٤١٦/١.
(٢٠)- مفاتيح الغيب: ٥١/٤.
(٢١)- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٢٢)- يُنظر: التحرير والتنوير: ٧١٩/١.
(٢٣) - ينظر: المصدر نفسه: ٧١٩/١.
(٢٤)- ينظر: التحرير والتنوير: ٧٢٤/١.
(٢٥)- يُنظر: بحر العلوم: ٤٣١/١.
(٢٦)- الكشاف: ٦٩٤/١.
(٢٧)- يُنظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ١٠٠/٣.
(٢٨)- يُنظر: بحر العلوم: ٤٣١/١.
(٢٩) -يُنظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣٠)- يُنظر: التحرير والتنوير: ١١٥/٧.
(٣١) - سورة البقرة الآيتان ٣٧، ٥٤
(٣٢)- يُنظر: التحرير والتنوير: ٤٣٧/١.
(٣٣) - سورة البقرة الآيتان: ١٢، ١٣
(٣٤)- يُنظر: مفاتيح الغيب: ٣٠٦/٢.
(٣٥)- يُنظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٤/١.
(٣٦)- وردت هذه الصيغة في تسعة مواضع في النص القرآني، وقع اثنان منها في السبع الطوال وهي على النحو الآتي: الأنعام: ١١٧، ١١٩، هود: ٦٦، الحجر: ٢٥، ٨٦، النحل: ١٢٥، السجدة: ٢٥، النجم: ٣٠، القلم: ٧.
(٣٧)- يُنظر: مفردات الفاظ القرآن: ٣٣٦.
(٣٨)- يُنظر: إرشاد العقل السليم: ١٧٨/٣ - ١٧٩.
(٣٩)- يُنظر: التحرير والتنوير: ٣٦/٨.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتديء به القرآن الكريم.

١- أسرار العربية: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ)، الطبعة الأولى، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٩هـ.
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
٣- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي(ت٣٧٣هـ): تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، الدكتور زكريا عبد المجيد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣ م
٤- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
٥- التعريفات: أبو الحسن علي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
٦- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الكاتب (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي،١٣٧٥
٧- الجامع لأحكام القرآن: أبوعبد الله محمد بن أحمد القرطبي(ت٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ هـ.
٨- شرح الكافية الشافية: أبو محمد محمد بن عبد الله بن مالك (ت٦٧٢هـ) تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريدي، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث، السعودية،١٩٨٢م.
٩- شرح المفصل: أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش(ت٦٤٣هـ)، قدّم له: د. إميل بديع يعقوب الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.
١٠- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: أبو الحسن يحيى بن حمزة العلويّ (ت٧٤٥هـ)، الطبعة الثالثة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
١١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، الطبعة الثالثة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٢- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤) تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١١.
١٣- لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
١٤- مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)،الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠
١٥- مفردات ألفاظ القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ.
١٦- المفصل في صنعة الإعراب: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: د. علي أبو ملحم، الطبعة الأولى، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٣ م.